الجهاد فريضة في الدين وفضيلة في العرب

تسألني متى يؤدي المسلم فريضة الجهاد إذا لم يؤدها اليوم؟ دينه يتقحم عليه الكفر محاربيه مع الشيوعية، ووطنه تتفجر على جوانبه الدواهي من الاستعمار، وإخوانه في فلسين أخرجتهم دول النصرانية من ديارهم وأموالهم ليدخلوا فيها من صنعوا الصليب للمسيح من سلائل يهوذا. وقومه في الجزائر تتخطفهم المنايا السود والحمر على متون الجبال وفي بطون الأودية وهم يجاهدون على قلة عددهم ونقص عُددهم ثلاثة أرباع المليون من جنود مستكلبين زودهم الطبع الفرنسي بالرعونة والقسوة، وسلحهم الميثاق الأطلسي بالصواعق والبراكين، فهم يدكدكون بها القرى الجزائرية على من فيها من يتامى وأيامى وعجزة. وشعبه في أقطار العروبة وديار الإسلام لا يزال في معترك الخطوب ومشتبك المطامع يجأر بالشكوى، ويصرخ من الظلم، ويغضب للكرامة، ويثور للحق، فلا ينال من الضمير الدولي إلا ما تنال هبة الريح من الصخر الأصم.

هذه روسيا أن تتدفق في سهول الشرق لتنسخ بمذاهبها دياناته وفلسفاته، وهذه أمريكا تقيم من دونها السدود لتظل مستأثرة بخيراته.

وهذه انجلترا تحاول بالقتل والختل والاستبداد والاضطهاد أن تخلي الجنوب العربي من أهله لتستبدل بهم عبدانًا من الأفاقين يضمنون لها بقاء الاحتلال ودوام الدولة.

وهذه فرنسا تطمح بكثرة العديد وقوة الحديد وسطوة النار أن تفرنس الشعب الجزائري ليستظل بغير علَمه، ويتكلم بغير لغته، ويؤمن بغير دينه.

وهذه الأرض كلها أمامك تستطيع أن تنفضها قطعة قطعة فهل تجد العيون تتشوف، والأفواه تتحلب، والأطماع تتصارع، إلا على هذا الجزء الذي انبثق منه النور وعرف به الله وكرم فيه الإنسان؟.

* * * * *

وجوابي أن المسلم المؤمن لا يزال على ذكر من أن دينه قرآن وسيف، وتاريخه فتح وحضارة، وشرعه دين ودنيا، وحربه جهاد وشهادة، وحكومته خلافة وقيادة، فهو

مجاهد أبدًا، لا ينفك عنه الجهاد أصغره وأكبره. فإذا لم يجاهد عدوه جاهد نفسه، وإذا لم يراقب ثغوره راقب ضميره، والمسلمون منذ استيقظ وعيهم على رجفات الحرب العالمية الأولى أدركوا أن علة ما أصابهم من الاستعباد والاستعمار إنما هي اعتمادهم على الحق دون القوة، وعلى القول دون العمل. وأصل ذلك الضعف، والضعف يجافي طبيعة العربي، وينافي حقيقة المسلم. فتنادوا من وراء الحدود المصطنعة والستور المضروبة بلسان الأدب وإلهام الروح ووحي العقيدة إلى العمل سرًا وعلنًا للاستقلال الذي يحرر، ثم إلى الألفة التي تجمع، ثم إلى الوحدة التي تقوِّي، ثم إلى القوة التي تدافع، وهذه المراحل الوعرة المهلكة التي تؤدي إلى الحرية والعزة لا يقطعها إلا الجهاد الفدائي الذي فرضته شريعة الله واقتضته طبيعة العرب.

ذلك الجهاد الفدائي هو بذل المال والنفس في سبيل فكرة سامية، كإعلاء كلمة الله، أو تكريم ذات الإنسان، أو تحقيق حرية الوطن. وهو فرض عين على كل مسلم قادر إذا وقع المسلمون في خطر عام لا يقدر على دفعه قوم دون قوم، كالاستعمار والصهيونية. والقيام به لا يتقيد بزمن ولا أرض ولا جنس. مثله في ذلك مثل الأركان الخمسة للإسلام، ولكنه يختلف عنها في أمر دقيق، ذلك أن المسلم قد تضعف في نفسه الدواعي إلى إقامة هذه الأركان كلها أو بعضها، فيترك الصلاة والصوم، ويهمل الزكاة والحج. وإذا ذكره بها واعظ، أو حثه عليها خطيب، جعل قوله دَبْرَ أذنه. ولعل السبب في هذا الضعف أن العمل بهذه الأركان قائم بين المسلم وربه فلا وازع لها إلا من ضميره.

أما عقيدة الجهاد فقائمة على الصلات بينه وبين ربه ووطنه وولده وماله وتراثه وذكرياته وأمانيه، فهي لا تزال حية في نفسه على تراخي الزمن وشدة الترك، كالنار في البركان الهادئ، تسكن ولا تنطفئ، وتكمن ولا تظهر؛ حتى إذا أثارتها الحمية لدين يهان، أو لوطن يهاجم، انفجرت في نفوس المسلمين انفجار الحمم فما تذر من شيء أتت عليه إلا دمرته. بذلك نفسر تلك الصيحة الإسلامية العامة التي أخذت دول الاستعمار من جميع الأقطار المسلمة على انقطاع السبب وتباعد الشقة، تستنكر العدوان الثلاثي الذي وقع على مصر وتستعد لدفعه عنها بالأموال والأنفس. وبذلك

نفسر هذه الغضبة العربية الشاملة لما يصيب الجزائر اليوم من بغي الاستعمار الفاجر وطغيان المحتل الواغل وعدوان الطامع المغير، وما تبع هذه الغضبة من تعاون العرب على إمدادها بالمال والعتاد في ميادين الحرب، وتأييدها بالرأي والصوت في مجالس الحكم. ولم يكن عطف المسلمين على مصر ولا غضب العرب للجزائر لعصبية الجنس أو لحق الجوار، وإنما كان لتلك الحفيظة الدينية التي أوحاها الله في الكتاب، وبينها الرسول في السنة، وفصلها الفقهاء في الفقه.

والجهاد كسائر الأركان يستند إلى نص القرآن الكريم. وإن من سوره ما موضوعه الحرب والسلم والغنائم والأسرى والعهود وجملة ما يتألف منه قانون الحرب في الإسلام كسورتي التوبة والأنفال.

ومن المغازي الدقيقة للقرآن الكريم أنه لم يعرض لأسرى المسلمين بنظام ولا معاملة كما عرض لأسرى العدو؛ لأنه يأمر بالثبات وينهى عن الهزيمة إلا لخدعة أو نجدة. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ [الأنفال: 15 – 16].

أما سر القوة في المجاهدين فعلمه عند الإسلام وحده. كان العرب من قبله قوى مبعثرة على رمال الصحراء لا تجمعها وحدة ولا تربطها رابطة؛ فلما اصطفاهم الله لأداء رسالته أمدهم بروح من عنده وحدت الشتيت وألفت النافر وجمعت الكلمة ﴿لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡ﴾ [الأنفال: 63]: ثم قوى هذه الروح فيهم بعقيدة القضاء والقدر فقال لنبيه صلوات الله عليه: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة: 51].

ثم ضمن للمجاهد الفوز بإحدى الحسنيين: النصر الذي تعقبه العزة لله والحرية للوطن والكرامة للإنسان، أو الشهادة التي يعقبها البقاء في الدنيا بالذكر، والخلود في الجنة بالروح.

بهذه الروح الإلهية خرج البدريون وهم زهاء الثلاثمائة إلى أئمة الكفر من أبطال قريش وهم زهاء الألف فكبكبوهم قتلى في وادي بدر، وعادت الفئة القليلة إلى يثرب بالنصر والأسرى، وعادت الفئة الكثيرة إلى مكة بالهزيمة والجرحى.

وبهذه الروح المنبثقة من روح الله خرج بدو الجزيرة من أجواف الأودية وأعماق القفر ضئال الجسوم قلال العدد ضعاف العدة إلى الإمبراطوريتين اللتين تقسمتا يومئذ ملكوت الأرض فقوضوا الإيوان على ملك كسرى، وحطموا العرش على سلطان قيصر. وبهذه الروح الملتهبة في دماء المجاهدين ثبتت بورسعيد بالأمس لمائة وستين ألفًا من أعقاب الصليبيين، وثبتت اليوم الجزائر لسبعمائة وخمسين ألفًا من أحفاد نابليون.

وبهذه الروح القدسية التي تشع في قلوب المجاهدين الصبر والصدق والثبات والإقدام والإيثار والتفدية كانت قوة المجاهد ضعف قوة عدوه. ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال:66].

والجهاد بعد أولئك كله سعادة لا يؤتاها إلا من اجتباهم الله لإكرام خلقه وإعزاز حقه وإصلاح أرضه، وقد سماهم الله الشهداء، وجعل مقامهم في الجنة مع الصديقين والأنبياء. هؤلاء هم الذين اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة. وهم الذين فتحوا الفتوح للإسلام، ومهدوا المهود للمدينة، وسقوا الأراضي المفتوحة بدمائهم الزكية فأنبتت تلك الحضارة التي طهرت النفوس وعمرت الدنيا وثقفت العالم.

فما أسعد أولئك الذين أخرجهم الله ليعز بجهادهم وطنًا، ويحيي باستشهادهم أمة!.